عبد الرحيم الوكيل

ضوء ومعدن ورغبات

● د. عاصم عبد الأمير*

(1)

يوفر لنا النحات عبد الرحيم الوكيل قدراً عالياً من الإقناع فيما يفعله النحت، تحديداً في انشغاله المستمر بابتكار أشكال تلامس نداءاته الداخلية مع اقتراح تصورات هي الأقدر على تمثل حاجات شعورية تضيء الممارسة النحتية، وتأخذ بها إلى منطقة حساسة، تتبادل اللعب مع التشكيل، وفق مبدأ إنتاج لغة استعارية للنحت، ربما لأنه يعرف أن الأعمال الكبيرة ليست بحاجة إلى الأفكار كي يتملكها الإدهاش، بل إن العبقرية كثيراً ما تتجلّى في هدم الأنساق المفاهيمية، وتدمير وثوقية التداول، وبمقدرة البساطة أن تفعل ذلك وتقول أشياءَ أكثر تعقيداً، وتصل إلى مرماها دون حوائل.

إن إغراق النص بمحمولات سياقية كثيراً ما يُحيّد كينونة اللغة البصرية، ويجعل منها صدىً خارج فعل الإرادة الفردية، هذا مما لا يرغب به الوكيل قطعاً. هناك حدود يجيد الوكيل اللعب عليها، تتلخص في التعامل مع النحت بوصفه نتاج موقف ثقافي، ولسان ناطق عن مشاعر، ومادة لزمن جدلي حاو لحضور رمزي خلاق وفضاء تخيّلي يسمحّ بمرور الشواغل الوجدانية التي تصل به أحياناً إلى إيروسية قصيّة، لكنها مترفعة ما، إنما يغمرها بمزيد من الشحنات النفسية والعاطفية، مع مظاهر التوتر التي تكشف عنها تلويناته على الكتل، لكأنه يعرف طريقه بيسر إلى جوهر النحت، وما يمكن أن يفعله في إضاءة وجودنا الإنساني.

عبد الرحيم الوكيل نحات ريادي عراقي عاش المنفى طويلاً حتى شارف نزعه الأخير، لكنه كان مضيئاً هناك، يبتكر مداخل للخيال، ربما كان للمنفى فيه قسط وافر في تأجيج حراكه الأسلوبي، مع وطنية لا يريد أن يُسجّل خارج خارطتها. ثمّة حضور للمخيال الفردي المدعم بوعي معاصر، يُبقيه- على الأرجح- معلّقاً ما بين المنفى والوطن. إنه ببساطة نحات يقظ الشعور، عصي على الإحالة لتجارب معاجيله، لكنه ليس مغمض العينين عمّا يحدث من حوله.

كثيراً ما يهمّه المحافظة على رؤية تنهل من تداعيات عارمة تبقيه في مدار النحت الحيوي الذي يأخذ من الحياة، ويعطي لها أكثر مما هو متوقع، ومراحل فنه بين النعومة والخشونة تضعه رقماً صعباً في النحت العراقي المعاصر، فهو ممن يجري إلى الكتلة تسبقه عواطفه، وأن زمن الانشغال في تقشير الكتلة بالإزميل لا يعني أبداً خسران سخاء مشاعره، لهذا تبدو مجسماته أقرب إلى الجريمة التي سرعان ما ينكشف سرّها، لهذا أيضاً فإن قاموسه الإشاري مُلغم بجيشان ثوري غير محدود، ومن خلاله يعرض لنا ما تجود به مخيلة ريادي حر تطارده الرغبات والمواقف الجليلة، وهو ما تشي به مجاميعه النحتية رقيقة التكوين أو تلك التي تشبه العاصفة بفعل ديناميتها الداخلية.

ثمّة مساحة للعب تزداد اتساعاً كلما زاد الإيمان بحدس الإنجاز بما يهب الكتلة إحساساً بحياة أخرى تصوغها لغة النحت، وتقدمها كبديل عن سعادات مُضاعة، لهذا تضعنا منحوتاته في صلب ظاهرة النحت المجدد الذي وجد مكاناً لائقاً بين أجناس الفن، كالرسم والموسيقى والأدب أبان الخمسينيات، لكن الوكيل يضيف لذلك لغة للتخاطب قوامها الكتلة والفضاء والمشاعر اللاهبة.

لقد وهب الخمسينيون النحت خيالهم، ليُحدث أثراً كاسحاً بعد أن عرفت بغداد مطلع تشكّل الدولة المدنية ثلاثة تماثيل من صنع نحاتين أجانب، منها تمثال فيصل الأول وفيصل الثاني، وتمثال مود، وبدت بغداد بساحاتها المشرقة أكثر استعداداً مما مضى في استقبال النحت كوسيلة اتصال وتعبير توثق لشخصيات هامة لعبت دوراً في وضع التشيئات الأولى للدولة العراقية.

لم تكن تجارب عبد الرحيم الوكيل بمعزل عن الهواجس التي كانت تشغل النحات العراقي يومذاك، باستثناء حراكها الأسلوبي الذي يهب الخطاب أغراضاً دلالية وإشارية شتى، فهو ليس ممن يرى أسلوبه بعين الرضا، إلا ويزيد عليه من مسوغات التجديد، دون

تفريط بمهابة الكتلة مع محمولاتها التي هي الأخرى موضع تبدّل على الدوام. والوكيل نحات يعرف كيف يقرّب إلى الموسيقى، أو العكس، هذا ما تشي به تشكلاته البصرية المنفتحة على آفاق تعبيرية لا تكتفي بنسقية أسلوبية تدور في رحى النمط، كالتي نراها في تجارب عدّة من مجايليه، وشكلت مع التراكم سمة أسلوبية لها، ووضعت النحت العراقي أمام مفترق طرق، مما يستأهل دراسة مستقلة لسنا هنا بصددها.

ضوء وموسيقى

تتجلّى مظاهر الموسيقى في منحوتات الوكيل بالإيقاع الداخلي الذي يمور بالنغم، مما تتركه السطوح المتعاكسة والمواجهة لبعضها، ما يجعل الهيئة حاملة لرنينها الجمالي الخاص، دون الحاجة للتذكير بالمغزى المحمول، فهو ينحت ليس لأجل المضمون، رغم أنه يتمظهر أنا، وفي أخرى يقبل الحلول في الجسدية النحتية، لتصبح الأخيرة حاملا ومحمولا.

ثمّة لعب في الأدوار التي يؤديها شكل الخطاب وفحواه معاً، وفي كل الأحوال، فإن تجانس المزاج ومدد الانفعال والصياغة الموسقة للتراكيب هي التي تقرر الوجهة المراد للكتلة الذهاب باتجاهها، بحيث تستقر الرؤية تماماً حين تتخلّص من الإكسسوارات التي يرى فيها ضرراً فادحاً للهيكلية النحتية. وهكذا يترك للنغم الموسيقي مساحة متاحة من خلال الاستحواذ على الكتلة في المواضع التي تسمح للضوء لأن يستعيض عن المعنى، أو يحل بديلاً عنه، ويؤدي غرضاً بنائياً تقرّبه من طبيعة الرغبة في إشهار كفاءة نحتية لافتة التي كثيراً ما تدله على المواضع الحساسة في النحت، بما يجعلها أقرب إلى جوهر الجمال لا أعراضه.

الضوء في منحوتات الوكيل، يبدو كمسوّغ بصري يزيد ضربات الجمال جمالاً، مما ترتد موجاته على السطوح النحتية التي تؤدي أغراضها التعريفية بالقوام الجمالي، بما يبدد التكوين الطبيعي للمرمر أو المعدن، ويجعل منهما فضاءً يتقبّل شحنات التعبير التي يحوكها الإزميل بهدوء ومسرّة.

وأبعد من ذلك، فإن الضوء يمثّل مرتبة جمالية تؤكد نجاح مساعيه في إنتاج أعمال نحتية لافتة يمتزج فيها جسد الكتلة بروح الفن، مما يتيح المجال واسعاً للخطاب على تأسيس لحظات تعبير تتلبّس بماهيّة الهيئة وتصبحا وجوداً جمالياً له مزايا الإمتاع، ويستشعرنا بموسيقى البنية في مقابل تشاركية في إبراز ما تختزنه الأنامل من بؤر تعبيرية قوية تمارس وجوهها الحي كراً وفراً بين الضوء والظل، وهي لعبة يديرها النحات بأفضل ما يكون عليه الحوار.

إنه يعيش لحظة يتحالف فيها الخيال والحدس لتحرير الشعور الآني من تبعية الواقع، ليذهب به مرة واحدة إلى فضاء يأخذه بعيداً عمّا يُرى، ليرى ما لا يُرى هناك، حيث يستعيد الواقع كينونته تحت هاجس الإحساس بالفردية والحلم، والفكرة التي ينبغي أن لا تجد لها مكاناً دون أن تدرك مغزى سموها الجمالي، لهذا فالضوء ليس ناتجاً عرضياً في مجسماته، إنما هو عنصر داعم لتقاطع الشعور بما يتيح للكتلة الحفاظ على الأسطورة التي تتردد أصداؤها برؤية أقرب إلى التحرير منها إلى التسجيل، لكنه لا يسرف في الإزاحة إلى الدرجة التي ينتفي فيها الترابط بين الأفكار ومصوغاته الشكلية.

ما من شيء يدفعه للشك بمنجزه الذي يتغذى على إرث محلي وحضاري يخضع هو الآخر لحساسية تتكيف مع لحظة الإنجاز على نحو يأخذ برسالة النحت لحفر أنساقها الأسلوبية تحت دافع الديمومة بصيغة لا تتناقض وهواجس نحات حالم في رحاب العالمية، رغم تغاضي النقد عن ملاحقة منجزه المثير، مما يترك فينا أسفاً بلا حدود.

ثمّة توافق لا تخطئه العين في تصريف أحاسيسه، وتمريرها في مشغولاته النحتية، صقيلة كانت أم خشنة، بما يكشف عن رغبة لا تقاوم للانتصار على الخامة، مع الإبقاء على رنّة المشاعر في أعلى تمثّلاتها، ربما لهذا السبب، لا يستسيغ الوكيل البقاء عند تخوم الوصف المجرّد لمشاهدة كثيفة الغنائية، حتى لو بدت عارمة في جدلها وتجريداتها، لذلك ثمّة مسوّغ مفاده، أن الشكل البصري المنظور خارج طاقة الحدس يقلص من هامش الفرجة البصرية، بسبب الإحلال الميكانيكي للنظير المادي الذي يسلب الكثير مما يمكن أن يقدّمه الفن للواقع. هذه الأطروحة تمثل درساً جمالياً بحد ذاته، مما يجعل من الخطاب لا يخسر رهانه الجمالي.

فهو نحات معاصر يعرف تماماً كيف يخرجنا من قيود الحسّيات إلى فضاء يحركه عنفوان الشعور، وقريحة قابلة على إنكار إنجازها، وأن النظر إلى منحوتاته من وجهة وصفية لا تصل بنا إلى مرادنا في فهم لغز تشكّلها، لأنها ببساطة تطمس المزاج

الجمالي المتصاعد الذي يجعل من غموض بعض أعماله نوعاً من تطمين حاجات لذائذية لا يرغب في إشهارها بشكل سطحي وفض. في بداياته عرفناه نحاتاً واقعياً مجيداً، وله في ذلك إنجازات نحتية قيمة تشيئ بكفاءة واحترافية نحات ممارس للأصول الدراسية من تشريح وهندسة المعمار، دع عنك براعته في التعامل مع الوسائل الإجرائية المعروفة في النحت، منها البناء المباشر أو الحذف. إن سلسلة أعماله بهذا الاتجاه تفرض على نفسها رقابة أكاديمية صارمة، تجعلها الأكثر توافقاً مع ذات حرة عصيّة على الاستعباد، وأن الإفراط في التشبيهية في نماذجه هذه ليست أكثر من عتبة للقفز إلى فضاء الفن القادر على امتصاص وبث رسائله الإبداعية دون اضطراره للعودة جريا وراء تلك الأصول، لهذا أدرك مبكراً مغزى التعايش مع لذائذ النحت التي تسمح له بتمرير تصوراته، محافظاً على نماذجه الجمالية مع كل تجربة متوقعة.

أعماله النحتية ذات المنحى الواقعي ليس هدفها الإخلاص للمشابهة بالمعنى الميكانيكي للمصطلح. إنها تتحوّل إلى خميرة رمزية تديم الصلة بين اليد والذاكرة والوجدان. دائماً ثمّة إحساس أصيل بالنصر على الكتلة كثيراً ما تجذب الفنان للتقدم إلى الأمام. المثير هنا أن النحات الوكيل لا يريد أن ينظر لأعماله هذه من وجهة حرفية على أهميتها، إنما الرغبة في معاينة خطابه من زاوية الفن الذي يتغلب على الحرفة ويهبها سخاءً وإدهاشاً، ويُبعدها من عقلية النسخ.

أعماله بوجه الإجمال تشتغل على ثنائية الذكورة والإنوثة، وهي تضع ولاداتها عبر لغة مشفرة، لكنها ليست بعيدة عن هذا النبع، وإذا ما كان الجنس يفرض احتجابه على اللغة، فإن النحت يؤرخ للتفاعل بين الرجل والمرأة، بطبقات من الوعي تراكمت مع ازدياد الإحساس لتطمين حاجات تمس جوهر النظام المجتمعي، وأرى أن الوكيل يدفع بنماذجه النحتية فيما يشبه الكشف عن تواريخ سرية للإنسان، يتعذّر إشهارها خارج منظومة القيم، ومجسّماته هي الأكثر حراكاً في قضية الجسدية، وما ينتج عنها من متعية، ودعوة في تفهّم آثارها البليغة على المشاعر، لكنه يجذب المفاهيم الصادرة عن أطروحته الجنسانية مشيعاً معرفة دونما أقنعة، وأن المجازية فيها ليست أكثر

من فضاء رمزي يوفّر إزاحات مؤثرة تليق بحضور الجسد بوصفه أصلاً من أصول هويتنا الإنسانية.

لهذا كله أقول: إن عبد الرحيم الوكيل نحات رغبات ومواقف يسعى من خلالها مد جسور الخيال كي يهبها كل هذا الجمال.

(2)

بمناسبة هذه القراءة، أثمّن عالياً إبداع النحات عبد الرحيم الوكيل لتراثه الشخصي نحتاً ووثائق أصلية، وتخطيطات أولية لمشاريعه الفنية إلى كلية الفنون الجميلة/ جامعة بابل، لتأخذ الأخيرة على عاتقها في موقف مشرّف تأسيس متحف مهيب يحمل اسم الفنان.

*فنان وباحث أكاديمي من العراق